طلقة (١٩)

كل جندي له دوره

تفاصيل الأخطاء الجسيمة !

«في رأيي أن قرار تطوير الهجوم لم يجانبه التوفيق ليس في التوقيت فحسب وإنما في استخدام الاحتياطات المدرعة في القيام بهذا الهجوم الجديد، فالمعروف من المبادئ الأولية لاستخدام المدرعات أن الدبابات ليست أنسب الأسلحة لمهاجمة النقاط المحصنة إذ أنها بهذه الطريقة سوف تفقد أهم خاصية في استخدام المدرعات وأقصد بها استغلال خفة حركتها وقدرتها على الاندفاع والاختراق للوصول إلى عمق دفاعات العدو لإرباكه بعمليات التطويق والالتفاف حول مؤخرة خطوطه الدفاعية ولذلك يجب دفع الدبابات لمهاجمة المناطق الضعيفة لا المناطق المحصنة ما يعرضها لنيران كثيفة تكبدها خسائر فادحة وبالمصادفة كان قائدا الجيش الثاني والثالث من ضباط المدرعات فطنا إلى هذه النقطة ونبها القيادة العامة إليها ولكن كان من الواضح أن قرار الهجوم قد تقرر سياسياً للتخفيف عن الجبهة السورية وبدلاً من أن يتم تطوير الهجوم بجميع وحدات فرق المشاة الرئيسة فقد اكتفى بدفع الاحتياطات المدرعة من غرب إلى شرق القناة الأمر الذي أدى إلى كشف المنطقة خلف الجيوش الميدانية في غرب القناة مما يعرض هذه الجيوش لاختراق المدرعات الإسرائيلية للغرب وتهديد مؤخرة الجيوش وهذا ما حدث بالفعل بعد تطوير الهجوم لقد كان تطوير الهجوم محكوماً عليه بالفشل منذ البداية»..

هذه هي وجهة نظر جديدة صاحبها اللواء كمال حسن علي قائد المدرعات في حرب أكتوبر، ورئيس الوزراء فيما بعد، وذكر هذا في كتابه «مشاوير العمر».

ولأن الثغرة نقطة تحول تاريخية في مسار حرب أكتوبر اختلفت حولها وجهات نظر كبار القادة سياسياً وعسكرياً، كان ضرورياً النظر إليها بعين الاعتبار من جميع الزوايا وكان ضحيتها الشاذلي ولأنه بطل هذه الحلقات كان واجباً أن نطرح الموضوع بجميع الآراء ولها جميعاً كل الاحترام وعلى القارئ أن يستنبط ولو أن الحقيقة في نهاية المطاف ستتحدث بنفسها عن نفسها.

الأخطاء القيادية

في مذكراته وفي الفصل رقم ٤١ يكتب الشاذلي تحت عنوان الأخطاء القيادية

الجسيمة يقول:

· أطالب بإلغاء منصب القائد العام للقوات المسلحة هذا المنصب الذي لا نجد له مثيلاً في دول العالم الثالث المتخلفة.

· لو أن السادات لم يرتكب جريمة في حق الوطن سوى أنه عين أحمد إسماعيل قائداً عاماً للقوات المسلحة وهو يعلم أنه كان مريضاً بالسرطان لكان ذلك كافياً لإدانته بارتكاب جريمة الخيانة العظمى في حق الوطن.

· أن القائد الذي يخشى أن يسحب جزءاً من قواته من القطاعات غير المهددة للزج بها في القطاعات المهددة بحجة أن ذلك قد يؤثر على الروح المعنوية هو قائد انهزامي ولن ينجح قط في تحقيق أي نصر في أي معركة.

· لقد عارض السادات وأحمد إسماعيل اقتراح الشاذلي سحب الفرقة المدرعة واللواء ٢٥ المدرع من الشرق إلى الغرب يوم ١٦ ولكنهما قاما بسحب الفرقة الرابعة المدرعة يوم ١٩ وعارضا اقتراح الشاذلي بسحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب يوم ٢٠ ولكنهما قررا الأخذ بهذا الاقتراح يوم ٢٨ أكتوبر وفي الحالتين جاء القرار متأخراً ولم يحقق الهدف من هذه المناورات. لماذا لم تشكل لجنة قضائية عليا حتى الآن لتقصي الحقائق عن حرب أكتوبر كما حدث في إسرائيل ويحدث في الدول المتحضرة في أعقاب كل حرب؟!.

ويواصل الشاذلي قائلاً: فكرت كثيراً قبل أن اختار عنوان هذا الفصل «الأخطاء القيادية الجسيمة» وكان العنوان الذي في رأسي أول الأمر هو أخطاء السادات وأحمد إسماعيل، حيث إنهما هما اللذان ارتكبا تلك الأخطاء دون غيرهما، غير أن المناقشات والتصريحات التي أدلى بها بعض القادة وبعض المحللين العسكريين بعد الحرب كان بعضها يؤيد هذه الأخطاء، وحيث أن تلك الأخطاء هي التي سوف أسردها تتعارض مع أصول العلم العسكري وما نقوم بتدريسه لأبنائنا في الكليات والأكاديميات العسكرية فقد خشيت أن يقتنع بعض القادة الحاليين

وبعض طلاب العلوم العسكرية بتلك الأخطاء فتكون مصيبة كبرى بالنسبة لمستقبل مصر والبلاد العربية ولذلك فقد اخترت العنوان الذي ذكرته ليكون في الوقت نفسه رداً لكل من يؤيد تلك الأخطاء بالصمت أو بالكلمة.

العسكرية والسياسة

المحافظة على الغرض مبدأ أساسي من مبادئ الحرب، بل إنها هي المبدأ المحوري الذي تتأثر به جميع مبادئ الحرب الأخرى ولذلك فإن المهمة التي تخصص للقوات المسلحة يجب أن تكون واضحة وأن تكون في حدود إمكاناتها، وحيث أن الحرب هي امتداد للسياسة بوسيلة أخرى فإن القيادة السياسية هي التي تخصص المهمة التي تكلف بها القوات المسلحة، ولكن القيادة السياسية تلجأ عادة إلى مناقشة هذه المهمة مع القادة العسكريين قبل إصدارها حتى تضمن إمكان نجاح القوات في تنفيذها ومنذ اليوم الأول لميلاد الخطة الهجومية المآذن العالية في أغسطس ١٩٧١ كان القيادتان العسكرية والسياسية على قناعة بحقائق ثلاث: هي تفوق العدو الساحق في مجال القوات الجوية وتفوقه في مجال الحرب البرية الخفيفة الحركة BLITZKRIEG كنتيجة حتمية لتفوقه الجوي وفي وسائل الاتصال المؤمنة في الجو والأرض، والثالثة والأخيرة في هذه الحقائق أن أميركا تؤيد إسرائيل تأييداً مطلقاً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وفي ظل هذه الحقائق كان يجب أن يكون الهدف متواضعاً حتى أن الرئيس السادات كان يقول في مؤتمر القادة قبل الحرب: أريد منكم أن تنجحوا في احتلال عشرة سنتيمتر على الضفة الشرقية وأن تحتفظوا بها وسوف يؤدي هذا إلى تعديل كبير في موازين القوة سياسياً وعسكرياً.

هذا الكلام معناه أن السادات دخل الحرب مرغماً، حيث لم يكن هناك أمامه من بدائل سواها، وقد أدرك تماماً أن سياسته لن تنجح إلا إذا تحركت أزمته مع إسرائيل بنوع من القوة يجبرها على اللجوء إلى الحلول السياسية بل أن كيسنجر في رحلاته المكوكية الشهيرة اعترف له بذلك صراحة.

تغيير النظام

يرى الشاذلي لفض الاشتباك بين ما هو عسكري وسياسي أن يتم تعيين رئيس الأركان بعد موافقة مجلس الشعب عليه كما يحدث في أميركا.

وقد ابتكرت أنظمة العالم الثالث وغالبيتها غير ديمقراطية مسمى القائد العام للقوات المسلحة في عدة نماذج: أولها إسناد الوظيفة إلى وزير الدفاع فيصبح لقبه وزير الدفاع والقائد العام، والنموذج الثاني أن يحتفظ رئيس الدولة بلقب القائد العام ويصبح وزير الدفاع هو نائبه، والنموذج الثالث أن يحتفظ رئيس الدولة بمنصب وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة ويلغي منصب رئيس الأركان ويستبدله بمنصب ذي صلاحيات محدودة يسمى أمين عام وزارة الدفاع، أما النموذج الأخير يلغي فيه منصب وزير الدفاع ورئيس الأركان ويمارس رئيس الدولة سلطات المنصبين من خلال إحدى مديري مكتبه وهذه النماذج وإن اختلفت في الشكل لكنها تتفق في المضمون وهو تمكين رئيس الدولة من ممارسة أكبر قدر من السيطرة على الجيش وفقًا للنموذج الأول وهناك إجماع في الرأي على أن القيادة السياسية هي التي تحدد مهمة القوات المسلحة ولكن جرت العادة أن يتم التشاور بين القيادتين السياسية والعسكرية قبل تخصيص المهمة حتى تكون في حدود إمكانياتها أما بعد ذلك فيجب أن لا تتدخل القيادة السياسية في الأمور الفنية وإن كان هذا لا يمنع من التشاور المستمر للصالح العام.

قد يكون من السهل على النقاد أن يتهموا السادات بالجهل لأنه لم يخدم في القوات المسلحة سوى ثلاث سنوات وهو برتبة الملازم والنقيب في بداية الأربعينيات ولأنه لا يحب أن يجهد نفسه في القراءة والبحث ولكن هذا لا ينطبق على أحمد إسماعيل فلا أحد يستطيع أن يشكك في علمه وثقافته العسكرية رغم خلافي الشهير معه وإن كان قد اشتهر بجموده الفكري وخوفه من تحمل المسؤولية ولكن هل من الممكن أن يصل الجمود إلى حد إهمال مبدأ عام من مبادئ الحرب لا يمكن تحقيق أي نصر بدونه وهو المناورة بالقوات بمعنى تحريكها من أماكنها، ولكن في يوم ٢٥ أكتوبر أمر الفرقة

الرابعة المدرعة بفك حصار الجيش الثالث بينما كانت ألوية العدو غرب القناة تقدر بحوالي ثلاث فرق مدرعة وكان يملك زمام الجو ولولا تمردي ورفضي توقيع هذا الأمر لتم تدمير هذه الفرقة. والبحث عن الأخطاء في حرب أكتوبر التي حققنا فيها نصراً عسكرياً عظيماً الهدف منه ألا تعيش الأجيال المقبلة في وهم التفوق الزائف ويجب أن تستفيد من تلك الأخطاء وتعمل على عدم تكرارها. وآن الأوان بعد كل هذه السنوات من الحرب لأصحاب الآراء المختلفة أن يجلسوا إلى بعضهم البعض وأن يناقشوا فقط الخلاف على الملأ بنية الوصول إلى ما هو صحيح وتأكيده وإلى الخطأ وتجنبه وأن يتم ذلك في مناظرات علنية ونحن لسنا في حاجة إلى استدعاء خبراء أجانب فلدينا الكثير منهم ولكن بشرط أن يتم ذلك في مناخ ديموقراطي وألا يضار صاحب رأي برأيه، والمناظرة التي أقصدها وأعنيها ليست مثل تلك التي جرت عام ١٩٧٥ وكان هدفها الدفاع عن الأخطاء التي ارتكبتها القيادة السياسية والعسكرية خلال الحرب، والتاريخ لن يرحم ما جرى من تزييف للحقائق فهل من مناظر؟! كانت تلك الدعوة التي أطلقها الشاذلي في ختام مذكراته هي أقرب إلى المثالية، فقد كان نظام مبارك يتعمد تجاهل وشطب اسمه، بل وتنافس بعض المحررين العسكريين نفاقاً له كرئيس للدولة أن اختصروا حرب أكتوبر كلها في الضربة الجوية ولا ينكر أحد على المستوى التاريخي دور مبارك كقائد للقوات الجوية، لكن الانتصار تحقق بفضل جهد جماعي ومن الظلم أن ننسبه لفرد دون غيره.

ورغم أن السادات أدرك فيما بعد كارثة الدفرسوار إلا أن الآراء التي طرحت عليه للتغلب عليها كانت صحيحة وكانت وجهة نظره هي الخاطئة لذلك أراد بعدها أن يبحث عن كبش فداء، بعد أن اتضح له وللجميع أن مسألة تطوير الهجوم كما قلت له: كارثة وفي اجتماع جرى بالقيادة العامة قال لي السادات أن وجودك في الجيش الثاني يا سعد ليلة ١٨ أكتوبر كان سبباً في الثغرة وكان ردي بكل ثقة: يجب أن نحدد من هو المسؤول يا سيادة الريس وكنت أعني ما أقول، حتى قال لي أحمد إسماعيل بعد انتهاء الاجتماع ووداع الرئيس: كيف تخاطب رئيس الدولة بهذا الأسلوب!!

خارج السياق : (اعرف عدوك)

موشيه ديان، وزير الدفاع الإسرائيلي حتى عام ١٩٧٤، ظل لعِقد من الزمان رمزاً للحماية المقدسة لليهود وحامي نجمة داوود المقدسة، ولد في فلسطين ويعتبر من الصابرا الجيل الإسرائيلي الذي ولد في فلسطين ولم يشهد الشتات ، كان والده من رواد الاستيطان وقد عاش لفترة في إحدى مزارع الموشاف ودرس الزراعة بها وانضم للهاجاناه وعندما بلغ ١٤ عاماً، التحق دايان بمنظمة الهاجاناه العسكرية والبالماخ في بداية تكوينها قبيل الحرب العالمية الثانية. وعمل مع مجموعات الحراسة التي نظمها الانتداب البريطاني لمواجهة المظاهرات العربية، كما اشترك في الوحدات التي نظمها وينجت للحراسة الليلية وتأثر بنشاطه في العمليات الانتقامية الخاطفة والهجمات الليلية، وقبضت عليه السلطات البريطانية لنشاطه السرى فى الحركة الصهيونية المسلحة عام ١٩٣٩ وأفرج عنه عام ١٩٤١ لكى يقود جماعات البالماخ التي كانت مكلفة بمهام استكشافية وليست قتالية إبان الغزو البريطاني حين فقد عينه اليسرى في اشتباك مع القوات التابعة لحكومة فيشى، وقد عمل مع المخابرات البريطانية في إقامة شبكة إذاعية تعمل في حالة وقوع فلسطين تحت الاحتلال الألماني، كما عمل كضابط اتصال وتخابر مع البريطانيين في القدس حتى١٩٤٤، وفى حرب ١٩٤٨ قاد ديان عمليات القوات الصهيونية في وادي الأردن كما قاد القوات التي استولت على اللد والرملة وعمل في جبهة القدس. قبل اشتراكه في محادثات رودس ١٩٤٩ مع الأردن كرئيس للوفد العسكري في لجان الهدنة المشتركة، وفى عام ١٩٥٠ عين قائدا للقطاع الجنوبي، ثم قائدا لقطاع الشمال، وتولى بعد ذلك رئاسة المخابرات الحربية، وفى عام ١٩٥٢ تولى رئاسة الأركان العامة ثم رئاسة أركان الجيش عام ١٩٥٣ وبهذا يكون قد تولى أهم المناصبَ الرئيسة في الجيش الإسرائيلي، وقد قام ديان بتدبير سلسلة من الأعمال الانتقامية ضد مصر وسوريا والأردن ولبنان عام ١٩٥٥، وبدأ نجمه في الصعود بعد توليه قيادة حملة سيناء عام ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي). وفي أواخر عام

١٩٥٧ درس القانون والاقتصاد و العلوم السياسية، وقد تولى دافيد بن جوريون حضانة ديان سياسياً فدخل الكنيست الإسرائيلي عام ١٩٥٩، وأسندت إليه وزارة الزراعة في عام ١٩٥٩ إلا أنه ترك الوزارة عام ١٩٦٤ على أثر نشوب خلاف بينه وبين ليفى أشكول، وما لبث أن انشق عن الماباي مقتفيا خطى بن جوريون لتكوين حزب رافى، وذهب بعد ذلك إلى فيتنام الجنوبية لدراسة أسلوب مقاومة الشعب الفيتنامي للجيش الأميركي الذي يستخدم معدات حربية متقدمة، وقد كان لآراء ديان بصدد ضرورة التفوق العسكري الإسرائيلي كأسلوب للتعامل مع الدول العربية المجاورة أكبر الأثر في تدعيم التصور الصهيوني للأمن وفي تزايد سطوة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وقد كان من الطبيعي أن يتولى وزارة الدفاع الإسرائيلية في أغسطس ١٩٦٦ أبان إعداد إسرائيل لشن حرب يونيو ١٩٦٧ . وفي الفترة التالية للحرب صار ديان رمزاً لتسلط فكر المؤسسة العسكرية على المجتمع، وتولى إدارة الأراضي المحتلة من خلال الحكم العسكري وباعتباره وزيرا للدفاع كان ديان مسؤولا عن تنفيذ سياسة إسرائيل تجاه الأراضي العربية المحتلة باستخدام أسلوب العقاب الجماعي ونسف المنازل وتبني سياسة الجسور المفتوحة والردع الجسيم ضد الفدائيين الفلسطينيين في أعقاب أي من عملياتهم العسكرية .

وفي أيامه الأخيرة أبدى مواقف معارضة لأي تنازلات للعرب قد تقوم بها وزارة رابين، وكان موشيه ديان سببا في تهجير العديد من يهود المغرب واليمن والحبشة الفالاشاه إلى إسرائيل، وكان من أهم ألقاب موشيه ديان في إسرائيل لقب «حامل المينوراه».